الفصل الخامس: الأدب في الدين واللغة

يقول الدكتور زكي مبارك: إن الوطن في عرف العربي القديم هو داره فقط، وكان العربي يحسن إلى داره يوم كان ضعيفًا، فلما أرشده الإسلام إلى أن الوطن الصحيح هو الكرة الأرضية مضى يصول ويجول من الشرق إلى الغرب، وينشر لغته في رحاب الأرض.

ويرى أن العربي الحق يؤمن بالفناء في سبيل العروبة، وأن الإسلام باب من أبواب الخلود...

وكان زكي مبارك يشتهي أن يزور الحجاز، ومن ذلك كتب على صفحات مجلة الرسالة في الثامن من يناير سنة ١٩٤٠ يقول:

«كنت أشتهي أن أزور الحجاز لأكتب عن وطن الرسول كتابًا لا يعرف الزور ولا البهتان».

ونحن بدورنا نقول: إذا كانت أمنيته لم تتحقق، فإنه مع ذلك كتب الكثير عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

وإذا كنت قد قرأت الكثير مما كتبه، فإنني مع ذلك لا أستطيع القول بأنني ألممت بكل ما كتب زكي مبارك عن الدين الإسلامي الحنيف ولا عن الرسول صلى الله عليه وسلم، ومع هذا فسوف أعرض بعضًا منها لأنها في الطريق إلى القارئ الإسلامي والعربي في كتاب عن الفكر العربي عنده.

يقول زكي مبارك في الرابع عشر من يونية سنة ١٩٤٣ على صفحات مجلة الرسالة:

«لم أسمح لنفسي يومًا بالراحة باسم المرض، ولم أشكُ لغير الله ما يعتريني من التعب في بعض الأحايين، فبيني وبين الله عهود ومواثيق، والعهد بيني وبينه أن أقضي العمر ساجعًا فوق ما أبدع من أفنان الجمال، فأنا واثق بأن العافية لن تضيع من يدي، وهل يرضى الله أن أسجع سجع الجريح؟

من المستحيل أن ينفصم ما بيني وبين الله من عهود ومواثيق».

ومن قبل وفي الرابع عشر من سبتمبر سنة ١٩٤٢ وفي مجلة الرسالة أيضًا يقول تحت عنوان: (النور القدير على تمزيق الظلمات):

«هو نور الله، النور الغلاب القهار الذي لا يصدُّه حجاب، ولو كان في كثافة أنفس المحجوبين عن كرم واجب الوجود».

«وما تمر بنا لحظة من لحظات الكدر أو الغيظ إلا كانت شاهدًا على أن إيماننا بالله إيمانٌ مدخول.

ولا تمر بنا لمحة نعتمد فيها على هذا المخلوق أو ذاك إلا كانت دليلًا على أن ثقتنا بالله مزعزعة الأركان.

فما بالُ قوم تطير نفوسهم شعاعًا حين يهددون بغضب بعض الخلائق؟ وما بال قوم لا يستطيبون النوم إلا حين يطمئنون، إلى أنهم تحت حماية بعض الخلائق؟

لا يجوز لمن يخاف الناس أن يرجو الله، فإنه عز شأنه لا يسبغ نعمته الصحيحة إلا على المؤمنين، والمؤمن لا يخاف الفانين.

وماذا يملك بنو آدم حتى يرجوهم من يرجو، أو يخافهم من يخاف؟

جرب الثقة بالله، إن كنت لم تجربها من قبل، فسترى أن الأنس بالله يرفع عنك آسار الثقة بالناس، وما اعتمد أحدٌ على خلق الله إلا باء بالخذلان.

تواضعْ لله وحده، ولا تتواضع للناس، فهم بحكم فنائهم أذلاء.

تواضع لله أدبًا لا خوفًا، فهو يحب أن يراك في أخلاق السادة لا أخلاق العبيد.

لا تعامل باللطف والرفق إلا أهل اللطف والرفق: ثم أول ظلمك وعدوانك لم تحدثهم النفوس الأواثم بالتطاول عليك.

نزِّه نفسك عن الكفر بالله، ومن صور الكفر الموبق أن تقيم وزنًا لمخلوق لا يؤمن بفكرة العدل، ولا يجعل هواه من هواك في الاحتكام إلى صاحب العزة والجبروت.

إنَّ زمانك قد أُصيب باختلال الموازين، ولم يبق من أهله من تحدثك ملامح وجهه بالخوف من الظلم والكذب والافتراء، فكن أوحد زمانك في الفرار من تلك الأخلاق السود، ولا عليك أن تعيش عيش الفقراء، فما يغتني في أزمان الانحطاط غير التجار السفهاء.

وما أوصيك إلا بما أوصيت به نفسي، فما يستطيع ابن أنثى أن يقول: إني استعنت به في جليل من الأمر أو دقيق، ولا خطر في بال مخلوق أن ينال ودادي بغير الصدق في الوداد.

دنياكم سخيفة يا بني آدم، وأنتم منها أسخف، وسبحان من تجاوز عنها وعنكم فأمدها وأمدكم بالشمس والقمر، والماء والهواء!

لست منكم، ولستم مني، فبيني وبين الله عهدٌ وثيق، وإلا فكيف جاز أن تحاربوني عشرين سنة، ثم لا تكون شكواي إلا من متاعب الغنى والثراء؟

آمنت بالله، آمنت، آمنت، وإني لأكاد أصافحه بيمناي.

ومن أنت يا ربي؟ أجبني، فإنني رأيتك بين الحُسن والزهر والماء

***

النواحي الإنسانية في الرسول «صلى الله عليه وسلم»

أحبك أيها الرسول!

أحبك لأنك كنت إنسانًا له ذوقٌ وإحساس، ولم تكن كما يصوّرك الجاهلون الذين رأوا عظمتك في أن تكون حاكيًا لوحي السماء، وما أُنكر وحي السماء، ولكني أومن بأن في السريرة الإنسانية ذخائر من الصدق والروحانية، وأنت أول نبي أعز السريرة الإنسانية.

أليس دينك هو الدين الذي تفرد بالنص على أن المرء يتصل بربه بلا وسيط؟

أحبك أيها الرسول وأشتهي أن أتخلق بأخلاقك السامية. أحب أن أكظم غيظي كما كنت تكظم غيظك. أحب أن أسلم بجهادي من شهوات النفس كما سلمت بجهادك من شهوات النفس. أحب أن أفرَّ من الشيطان كما فررت من الشيطان، على شرط أن أحب الحياة كما أحببت الحياة.

أتدري لماذا أحبك أيها الرسول؟

لأنك أول من شرع الديمقراطية بين الأنبياء. ألست أنت الرجل الذي كان يتبذل في أكله ويقول:

((إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد)).

أتدري لماذا أحبك أيها الرسول؟

أحبك لأنك جعلت الحرب في سبيل الحق شريعة من الشرائع، وهي مزية إنسانية، وكان الأنبياء من قبلك يكتفون بالتفكير في عجائب الملكوت!

أحبك لأنك أعلنت حبك لطيبات الحياة واحتقرت الرهبنة والانزواء في المعابد والصوامع.

أحبك لأنك انتقلت من المعلوم إلى المجهول.

أحبك لأنك أعززت الشخصية الإنسانية يوم اعترفت بأنها صالحةٌ للخطأ والصواب.

ولكن ما رأيك فيمن يقاومون الحرية الفكرية باسم الغيرة على دينك؟

ما رأيك فيمن لا يرضيهم أن تكون إنسانًا يتذوق أطايب الحياة ويلهو أحيانًا بالمزاح المقبول؟

ما رأيك فيمن يحاربون الفنون والآداب باسم الدين؟

ما رأيك فيمن يتوهمون أن الشخصية النبوية مجردة من البهجة والأريحية؟

ما رأيك فيمن يُخرِجون من فردوس العقيدة الصحيحة كل من يتسم بسمة الحب لأطايب الحياة؟

obeikandl.com

أنت حاربت الزهد، وحاربت العبوس، وحاربت اليأس، ولكن بعض الناس يرون الإيمان لا يكمل إلا عند من يغرقون في لجج المسكنة والكآبة والقنوط.

كنت إنسانًا أيها الرسول قبل أن تكون نبيًّا، وتلك الإنسانية هي التي فتحت صدرك للصفح عن هفوات الناس، وهي التي جعلتك تنظر إلى ضعفهم بعين العطف، وهي التي قضت بأن تذوق ملوحة الدمع في بعض الأحيان.

أنت نزهت نفسك عن الشعر، الشعر المحبوس في قوافٍ وأوزان، ولكني لا أنزهك عن الشاعرية العالية التي تواجه الوجود بنظر ثاقب، وقلبٌ حساس.

وكيف تخلو من الشاعرية وقد خلوتَ إلى مناجاة القلب في غار حراء؟

كيف تخلو من الشاعرية وقد كنت رجلًا فحلًا يجيد افتراع المعاني؟

أنا أعرف لماذا نزهت نفسك عن الشعر أيها الإنسان الحساس، إنما نزهت نفسك عن الشعر؛ لأن الشعراء في عصرك لم يكونوا عظماء الأرواح.

وإلا فأي شعر فاتك وأنت تدعو إلى التفكير فيما خلق الله من غرائب وأعاجيب؟

أي شعر فاتك وأنت تجعل السير في الأرض من واجبات الرجال؟

أي شعرٍ فاتك وأنت الذي أشار بالأفضلية في الإمامة لمن وهبهم الله حسن الوجه وجمال الصوت؟

أي شعرٍ فاتك وكان شخصك الكريم قيثارة تتغنى بمحاسن الوجود؟

***

الآن عرفتُ لماذا يضن عليك بعض أتباعك بصفة الإنسانية، إنما فعلوا ذلك لأنهم في ذات أنفسهم لا يؤمنون بعظمة الإنسانية، أما أنت فقد رميت بالكفر كل من يريد أن يخلع عليك ثوب الألوهية؛ لأن الله خصك بأجمل مزية من مزايا الإنسانية وهي الصدق.

لقد فكرتُ مرات كثيرة من الاقتراب من روحك فلم يعقني عائق؛ لأن بيني وبينك وشيجةً من الإنسانية.

ودعاني الشوق مرة إلى مسامرة خيالك فرأيتك إنسانًا كاملًا لا تقع عينه على غير الجميل من شمائل الأصدقاء.

وصحبتك مرة في بعض غزواتك فهالني أن تكون رجلًا نبيلًا يصبر على الظمأ والجوع والأذى في سبيل الحق.

وشهدتك وأنت تعاني الكرب من فضول الناس وتزيد المنافقين وتقول السفهاء، فعرفت أنك إنسانٌ ممتاز؛ لأن الابتلاء بأذى الناس لا يكون إلا من حظوظ الممتازين بين الرجال.

وشهدتك يوم الموت وأنت تواسي ابنتك فتقول: «لا كرب على أبيك بعد اليوم» فعرفت أن الكرب في الدنيا مقصور على عظماء الرجال.

شهدتُ من أخلاقك وشمائلك ما شهدتُ، أيها الإنسان الكامل، فزدتُ اقتناعًا بأنك على خلقٍ عظيم.

ولكن ما هي العظمة في خلقك، أيها الرسول؟

لقد وضعت أعظم دستور للسريرة الإنسانية، وهو دستور الصدق، يا أصدق من عرف التاريخ من الرجال.

***

أمَّا بعد! فقد ارتاض القول بعد جموح، وصار من السهل أن أحكم بأن النبوة عهد من عهود العظمة في الطبيعة الإنسانية، ولولا خوف الفتنة لزدت هذا المعنى تفصيلًا إلى تفصيل.

محمد إنسان، ولكنه إنسان مظلوم؛ لأن أتباعه جردوه من فضل الاجتهاد في سبيل الخير والحق والجمال.

وهنا تظهر مزية جديدة لذلك الرسول هي نكران الذات، فلو كان محمد رجلًا من أمثال فلان وفلان وفلان من الذين نقلوا أممهم من حال إلى أحوال؛ لملأ الدنيا بالحديث عما وضع للحياة من أصول وقوانين.

ولكن محمدًا كان يحب أن يعيش مسكينًا وأن يحشر بين المساكين، وقد جزاه الله خير جزاء، فخصه بالعظمة في الحياة وبعد الممات.

محمد بشرٌ مثلكم يا بني آدم، وقد دعاكم إلى التخلق بأخلاقه، ولم يكتف بذلك، بل دعاكم إلى التخلق بأخلاق الله إلا الكبرياء، فهل رأيتم إنسانية مثل هذه الإنسانية.

محمد تحدث عن هفواته -إن كان له هفوات- ليدلكم على أن العظمة الحقيقية لا تكون إلا باتهام النفس والحذر من طغيان الأهواء.

كان محمد يقول في صدر خطبته: «أيها الناس» أو «يا عباد الله».

وأنتم تقولون في صدور الخطب: «أيها السادة» أو «سيداتي، سادتي».

فتأملوا الفرق بين العبارتين لتعرفوا أنه كان يبتعد عن تملق الأهواء.

استطاع محمد أن يتحدث عن هفوات الأنبياء، وعجزتم أنتم عن الحديث عن هفوات الزعماء.

فاعرفوا -إن شئتم- أن عظمة محمد من الوجهة الإنسانية هي تمجيد الصدق والخوف من زيغ القلوب.

قد تقولون: إن الله أوحى إليه أن يكون كذلك.

وأجيب بأن أكمل خصيصة من خصائص الرجال هي الصلاحيةُ لتقبُّل وحي السماء.

وللسماء وحي في كل وقت، ولكن أين القلوب التي تسمع؟

إن محمدًا حدثكم بأن الرجل يستطيع أن يخاطب ربه بلا وسيط.

فأين المسلم الذي فهم أسرار الحروف واتجه بقلبه إلى مناجاة فاطر الأرض والسماوات؟

أين المسلم الذي تأدب بأدب الرسول فعرف أنه مسئول أمام الله لا أمام الناس؟

والآن أرجع إلى نفسي فأقول:

كان محمد إنسانًا، ولكنه كان أعظم من جميع الناس؛ لأنه لم ير الغنيمة في غير المعنويات.

كان محمدٌ يستطيع أن يبني لنفسه دارًا تشبه إيوان كسرى؛ وكان يستطيع أن يبني لنفسه قبرًا يشبه هرم فرعون، ولكنه آثر أن يحيا ويموت وهو في مَتْرَبةِ المساكين.

إن محمدًا ظلم نفسه لينتصر ويفوز، وقد انتصر وفاز.

إن محمدًا حرم نفسه أبهة الملك، وباسمه عاش الملوك.

إن محمدًا حرم نفسه الشهرة بإجادة البيان، وبفضل الكتاب الذي بلغه عاش البيان. فيا رسول الله ويا إمام العرب والمسلمين إليك أوجه أصدق الثناء.

***

obeikandl.com

الأعياد اليومية والأعياد الموسمية

خطبة سجلت في إذاعة القاهرة لتلقى في إذاعة فلسطين.

أيها السادة[1]

أقدم إليكم أصدق التحيات، راجيًا أن يصل صوتي إلى أسماعكم وأنتم بخير وعافية، وآملًا أن تعيشوا إلى أمثال هذا العيد في رغد وطمأنينة وصفاء.

أمَّا بعد! فلكل منا أعيادٌ يومية، وأعياد موسمية، فما الفرق بين هذه الأعياد وتلك الأعياد؟

الأعياد الموسمية أعيادٌ شرعها الأنبياء ليوقظوا روح السرور في الناس، عساهم يلتفتون إلى موكب الحياة من حين إلى حين.

هل تعرفون السر فيما قضت به الشريعة الإسلامية من جعل الصوم حرامًا في يوم العيد؟

كان ذلك لأن الرسول خاف على أمته أن تتنسك تنسك الأموات؛ فلا تفرح ولا تبتهج في أي يوم، ولو كان يوم العيد.

هل تعرفون السر في أن يقول القرآن: {خذوا زينتكم عند كل مسجد}؟

---

(١) مجلة الرسالة بتاريخ ١١/١٠/٤٣.

إنه يدعوكم إلى لقاء الله في الصلوات وأنتم في أجمل ما تملكون من الثياب؛ لتفهموا أن الله يحب أن يراكم في نضارة النعيم لا في قساوة الشقاء.

إنَّ الأعياد الموسمية توحي بالسرور الشامل حين تصور الناس وقد احتشدوا للفرح والابتهاج، وحين تدعو كل فرد إلى التجمل، وحين تدعو كل بيت إلى إعداد الأطايب من الطعام والشراب، فمن تلك المظاهر المتجمعة يسري روح المرح في الجماهير، وتشعر النفوس بمعاني البشر والأنس، وتلتفت القلوب إلى حظوظها المنسية في دنيا السعادة والهناء.

ولعل زكاة الفِطر لم تُشرع إلا لهذا الغرض، فالمراد منها أن تثور موجةٌ من البر والإحسان، موجةٌ رحيمة تقضي بأن يجد الفقراء والمساكين ما يغنيهم عن التفكير في هموم العيش أيام العيد.

تصوروا كيف تكون الحال لو أدى الموسرون جميعًا زكاة الفطر بإخلاص.

تصوروا كيف يعم الفرح في مثل هذه الحال، فيفرح الغنيُّ بالتوفيق إلى أداء الواجب، ويفرح الفقير بأن يجد جارًا يواسيه باسم الشرع لا باسم الإفضال، فما كانت الزكاة إفضالًا وإنما هي واجب مفروض لا ينتظر صاحبُه من الناس أي ثناء.

في هذه الحال يكون الفقراء ضيوف الله في أيام العيد، لا ضيوف الموسرين من الجيران، ومع هذا تذيع القالة الجميلة فترفع أقدار المزكين، وتزيدهم إيمانًا بأن المعروف لا يذهب بين الله والناس.

ومن مزايا الأعياد الموسمية أنها تذكر بحقوق ودية ينساها الأهل والأقارب في أكثر الأحايين، فما في كل يوم نسأل عن أقربائنا وأصدقائنا، ولا في كل أسبوع ولا في كل شهر أو كل شهرين، ولكننا نشعر بوجوب السؤال عنهم في أيام العيد لنجازيهم لطفًا بلطف ووفاء بوفاء.

والأعياد الموسمية تقهرنا قهرًا على تحية من يئسوا من التحية؛ لأنهم ذهبوا إلى العالم البعيد، عالم الموت، ولم تبق فرصة لتحيتهم غير فرصة العيد.

أتدركون معنى الجمال الروحي في أن يكون أول من نحييهم في ليلة العيد هم الأموات؟

تلك التفاتة معنوية لها قيمة عظيمة، والوفاء الحق هو الوفاء لمن لا يملك الجزاء.

أيها السادة:

إنَّ فضائل الأعياد الموسمية أوضح من أن تحتاج إلى شرح، فتفضلوا بسماع كلمة وجيزة عن الأعياد اليومية، الأعياد التي تواجهنا في كل يوم، لو عرفنا كيف نروض النفس على إدراك الخفايا من نِعم المنعم الوهاب، وهي نعم تتجدد في كل لحظة، فنحن بها كل يوم في عيد.

تشرق الشمس والعافية في بدنك، والزاد في دارك، فيومك يوم عيد.

تغرب الشمس وحولك أهلك، والنوم يداعب جفونك، فليلتك ليلة عيد.

قد تطوف بك أحزان تثير دموعك، وهذا يقع من وقت إلى وقت؛ ولكنه شاهد على أنك في عيد، فالدموع في عيون الباكين أدوية ربانية تصنع في طب العيون ما يعجز عنه أطباء العيون، والأحزان في صدور المكروبين مراهم روحية تصنع ما يصنع المرهم الواقي في شفاء الجرح البليغ.

هل تعرف حكمة الله في الألم؟

إن الألم نعمة نفيسة، فهو بشير العافية؛ لأنه ينبه إلى المرض، والتنبه للمرض يدعو إلى العلاج وهو باب الشفاء.

والآفة الخطيرة هي انعدام الإحساس بالآلام، فإن تألمت فاعرف أنك في حيوية، وتذكر حكمة الله في الألم، لتعرف أنك في عيد.

الحزن علامة قوة لا علامة ضعف؛ لأنه يشهد بإدراكنا لقيمة ما نفقد، ولا نكون كذلك إلا ونحن أصحاء، فإن حزنت فاعرف أنك بعافية وأنك في عيد.

وكيف تكون العاقبة لو عشنا بلا أحزان وبلا دموع؟

إن الأحزان والدموع كانت ولن تزال من أنصبة الموهوبين والحزن العظيم لا يكون إلا من نصيب الرجل العظيم، ولو كان البكاء عيبًا لنزه الله الأنبياء عن البكاء، فلم يبك يعقوب على يوسف ولم يبك محمد علي إبراهيم، فإن بكيت فاعلم أنك بخير وأنك في عيد.

إن كنت غنيًّا فتذكر أن الغنى من النعم السوابغ، فأنت كل يوم في عيد.

وإن كنت فقيرًا، فما عيدك؟ وهل تكون للفقراء أعياد يومية؟

افتح قلبك واسمع هذا الدرس:

الفقراء في كل زمان وفي كل مكان هم عماد المدنية، فبجهودهم تُقام الصروح الشوامخ، وبأيديهم تُحفر الأنهار، وتُزرع الحقول، وتُنشأ البساتين، فإن كنت من هؤلاء فمن حقك أن ترى أنك كل يوم في عيد.

خزان أسوان من صنع يدك، كما كان برج بابل من صنع يدك، وكما كان سور الصين من صنع يدك، وما قام في الدنيا بناء وأنت غائب، يا فقيرًا يعمل ليجد القوت، فأنت بجهادك مصدر العيد لمن ينعمون بالعيد، ولو عقلت لأدركت أنك كل لحظة في عيد.

ولنفرض أنك كناس يكنس الشوارع ويملأ عينيه ورئتيه بالتراب في كل يوم، حتى يوم العيد، فهل تعرف نعمة الله عليك؟

تذكر أن الغبار يقذي العيون ولكنه لا يقذي عينيك؛ لأن الله يحميك، وتذكر أن الغبار قد يُورث مرض السل، ومع هذا لم نسمع أن كناسًا مات بالسل، فما يرضى الله بالمرض لمن يحاربون المرض، كما تحاربه بالمكنسة يا حضرة الكناس، فأنت كل يوم في عيد.

***

أيها السادة:

في ظلال هذا الفهم لنعم الله ندرك أننا كل يوم بعافية، وأننا كل يوم في عيد، وأننا مسئولون في كل لحظة عن إعلان السرور بما يجود به المنعم الوهاب.

الطفل يطالب أهله بحلة جديدة في العيد؛ لأنه لا يعرف غير الجديد، فما حاجتنا إلى حُلل من القطن أو الصوف أو الحرير ونحن في حُلل من العافية للجهاد في سبيل الرزق الحلال.

أنا لا أري الله خص بالشقاء جيلًا من الناس.

البصير في نعمة لأنه يرى محاسن الوجود.

والضرير في نعمة لأنه لا يرى مساوئ الوجود.

والأصم المحروم من لطائف الأنغام صانه الله عن سماع المرذول من الاغتياب.

نحن جميعًا في رعاية الله، فنحن كل يوم في عيد.

لقد غلا كل شيء في أعوام الحرب، إلا الماء؛ لأنه أنفس موجود، والله يجود بالنفيس قبل أن يجود بالخسيس، وليس في نعم الله خسيس.

أيها السادة:

إن الأعياد الموسمية أعياد العوام، أما الأعياد اليومية فهي أعياد الخواص، وأنا أدعوكم إلى التأمل في نعم الله عليكم لتكونوا كل يوم في عيد.

نِعم الله لا تعرف شعبان ولا رمضان، ولا تلتفت إلى المواقيت. نعمُ الله تُساق مع الأنفاس فليس لها رسول ولا حدود، والسعادة من نصيب من يؤمن بأن الله منعم ومتفضل في جميع الأحوال.

ولكن هذه الغاية لا تبدو بوضوح في كل وقت؛ لأن قلوبنا معرضة لغشاوات من الجهل والغرض والطمع والإسفاف.

نحن نباتٌ ظهر فوق الأرض، وأغصاننا مع هذا أطول من جذورنا؛ لأننا مجذوبون إلى السماء لا إلى الأرض، فماذا تريد بنا يا فاطر السماء؟

نحن منك وإليك، ولن ننحط في أي حال، فما ينحط من يؤمن بك ولو عاش في ظلمات الأدغال.

سمعنا وقرأنا أن عندك نعيمًا وسعيرًا، فلمن أعددت نعيمك وسعيرك؟

نحن لا نطالب بأن نكون من أهل رحمتك، فلسنا لذلك بأهل، وإنما نرجو أن تجعلنا من أهل عذابك؛ لنثق بالصلاحية لأن تضع أعمالنا في الميزان.

العيد هو يومنا عندك، ولو في أسوأ الفروض، فمن السعادة أن نقف بين يديك مسئولين.

والعيد الأعظم هو أن توقظ ضمائرنا في كل وقت لنعاني ألف حساب قبل يوم الحساب.

لا عيد ولا جديد إلا إن رجونا رحمتك وخشينا عذابك، فامنح قلوبنا نعمة الخوف منك والاعتماد عليك لنشعر بأننا كل يوم في عيد.

السماء في عيدك، والأرض في عيدك، والشمس في عيدك، والقمر في عيدك، والنجوم في عيدك، وأنت العيد لما نجهل من المواجيد، فأنت في غضبك ورضاك عيدٌ وألف عيد، فهل تسمح يا إلهي بأن نكون بفضلك كل يوم في عيد؟

***

obeikandl.com

صلاة الجمعة في مسجد باريس

ما شهدتُ باريس إلا خطر بالبال ما يجب على المؤمن من الرجوع إلى ربه لحظة أو لحظتين في هذه المدينة العجيبة التي طغت على كل ما تصوره الأقدمون من نعيم الجنان، وكانِ يرضيني في تهدئة الروح الظامئ إلى سلسبيل السلام والسكون أن أذهب إلى جامع باريس فأطوف به ساعة من الزمان بين النقوش العربية الدقيقة التي تزدان بها الجدران والسقوف، وبين خرير المياه في تلك الأحواض البديعة التي تذكر بأفنية المساجد الأندلسية عليها السلام، ثم آوي إلى قهوة الجامع فأتناول كأسًا من الشاي محفوفًا بالألحان العربية يهديها إلى السمع أولئك المغنون الذين يُسمعونك في باريس بعض ما تسمع على ضفاف النيل.

ولكن أين هذا كله من ذلك الخاطر الغريب الذي يعتادني منذ ثلاثة أعوام: فقد فكرت غيره مرة في أن أشهد صلاة الجمعة لأرى ماذا يقول الإمام في نصح من يعيشون في باريس، وما هي قائمة المنكرات التي يحاربها الخطيب في مسجد باريس، وكنت أقدر أنني سأجد أجمل فرصة أفهم بها تأثير الزمان والمكان في تلوين النصائح الدينية وتكوين عقليات الواعظين.

وهنا لا أكتم القارئ أني انصرفت عن صلاة الجمعة في مساجد القاهرة منذ أعوام. ويرجع السبب في ذلك إلى حادثة صغيرة زهدتني في أصحاب الخطب المنبرية: ذلك أنني كنت أحرر جريدة الأفكار في سنة ١٩٢١ فزارني بعض خطباء المساجد وفي يده مقالة يلح في نشرها،

ولكني وجدتها مملوءة بالطعن في الحكومة، لماذا؟ لأنها لا تمنح خطباء المساجد من المرتبات ما يعينهم على المظهر اللائق بهم. وفي اليوم التالي ذهبت أصلي الجمعة في أحد المساجد فوجدت صاحبنا بعينه يلعن الدنيا ويذم أهلها ويزعم أنها جيفة وأن طلابها كلاب!

وليس من التحام في شيء أن أذكر أن جمهور المثقفين في مصر لا يجد ما يشجعه على الحرص على فريضة الجمعة، وقد يكون في هذه الإشارة ما يحمل فضيلة الأستاذ الشيخ المراغي على وضع منهاج جديد تحيا به الخطب المنبرية، ويدخل فيها من الجدة والروح والحياة ما يجعلها وردًا سائغًا تهرع إليه النفوس المتعطشة إلى الحكمة والموعظة الحسنة، فقد دبَّ الشباب في كل شيء إلا خطباء المساجد عند المسلمين.

ذهبت إذن إلى مسجد باريس وفي نيتي أن أقف موقف المشاهد الذي يقيد ما يرى من الظواهر والفروق؛ ولكني لم أكد أتخطى عتبة المسجد حتى شعرت بأن «روح النقد» انصرف عني، وشعرت بأن «روح الإيمان» أخذ يحتل مشاعري وحواسي، وابتدأت فصليت ركعتين لله، وكنتُ حُرمت هذا منذ أزمان، ثم جلست أتأمل فيما يحتوي المسجد، فإذا المنبر مُهْدَى من «فؤاد الأول ملك مصر» وهو منبر جميل يحمل إلى باريس نفحة مصرية تذكر بأقدم أرض شُغلت بالآداب والفنون، ونظرت إلى المصلين فإذا هم قوم قد أخلصوا لربهم وبدت عليهم سيماء الخشوع، ومن ذا الذي يهرب من فتنة باريس إلى المسجد من دون أن يجد في قلبه روح التقوى وحرارة اليقين؟ ولأمرٍ ما عددت المصلين فإذا هم خمسون أو يزيدون. وانتظرتُ سورة الكهف؛ ولكني وجدتها لا تقرأ قبل الصلاة،

فتذكرت أن قرأتها على هذا النحو بدعة، وعجبت كيف يخلو ذلك المسجد من هذه البدعة وهو في باريس أم البدع والضلالات!

ويعد برهة فتح باب صغير أقبل منه الخطيب، ثم صعد المنبر، وأضيئت جوانب المسجد، ثم كانت تقدمة صغيرة قام بها أحد المؤذنين، وافتتح الإمام في أثرها الخطبة، وقد نظرت فإذا هو يحمل طائفة من الأوراق تشبه أن تكون ملزمة مفردة من كتاب. فتذكرت الخطب المنبرية التي تطبع في مصر ويستظهرها الخطباء ليعيدوها بنصها في كل عام على اختلاف الجمع والشهور، وتوقعت أن تكون هذه أيضًا مقتطفة من بعض الدواوين المصرية. ولكن هذا الخطيب طالعنا بخطبة فصيحة، بريئة من اللحن ومن الضعف كأنه السيد الببلاوي في مسجد الحسين. لقد ترك هذا الخطيب كل شيء من حياة باريس، كأن النصح فيها لا يغني ولا ينفع، وأخذ يحدثنا عن شهر ربيع الأول وما وقع فيه من الحوادث الجسام في عهد الرسول، فسألت نفسي: أتكون هذه المرة الأولى التي يتحدث فيها الخطيب عن ربيع الأول؛ مع أننا في الجمعة الأخيرة منه، أم هذه خطبة ثانية أو ثالثة من هذا الشهر الميمون؟!

ورأيت لأول مرة في حياتي خطيبًا ينشد الشعر في خطبة الجمعة كلما بدت مناسبة، فقد أنشد هذا البيت:

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذُخرًا يكون كصالح الأعمال

وإذا صح أن هذا البيت من شعر الأخطل -وكان نصرانيًا لا يفارق الشراب- فإنه لدليل على أن للشعراء لحظات تصفو فيها نفوسهم فتفيض بالحكمة العالية يبقى أثرها بين مختلف الفرق والملل وعلى اطراد الأجيال.

وأنشد في مكان آخر الأبيات التي يقول في بدايتها الحريري:

يـا خاطـب الـدنيا الدنيـة إنهـا شَـرك الـردى وقـرارة الأكـدارِ
دارٌ متى مـا أضـحكت فـي يومهـا أبكـت غـدًا تبًّـا لهـا مـن دار

وفي مكان ثالث أنشد أبياتًا في مناقب أبي بكر رضي الله عنه غابت عن الذاكرة. وكنت لا أعرف لأي سبب يترك خطباء المساجد الاستشهاد بالشعر، ولكن بعض رجال الدين له رأي في الشعر قد يكون السبب في العدول عن الاستشهاد به؛ إذ لا يراه من الأمور ذوات البال!

ولاحظت أن خطيب جامع باريس يملأ خطبته بالنفحات الوجدانية، فهو يقول مثلًا: «وأين ربيع الروح من ربيع العين» هكذا وقعت الجملة لضرورة السجع، وكنت أحب أن تكون «وأين ربيع العين من ربيع الروح» على أن السجع يقع خفيفًا جدًّا في خطبة ذلك الرجل، فقد كان يتكلم بطريقة خالية من التكلف ومن اللبس، وكان له في تصوير الظروف التي اقتضت الهجرة ذوق جميل.

وبعد انتهاء الخطبة نزل الإمام فصلى بنا صلاة خفيفة جدًّا، رجونا أن يكون في بساطتها ما يؤكد لها القبول، فإن الرياء والتصنع لا يغنيان فتيلًا عند علام الغيوب. ثم قرأ المصلون جميعًا دعاء شائقًا لاحظت أنهم كلهم يحفظونه ولا أحفظ منه حرفًا واحدًا، وإن كنت هيمنت منه بضع كلمات لأستر جهلي بفقراته الحسان، وأنا والله معذور فإني لم أمع مثله حين كنت أواظب على الصلاة قبل أن أعرف (بونجور مدموازيل) و(بونسوار مدام)!

فلما انتهى المصلون من قراءة ذلك الدعاء مشيت إلى ذلك الخطيب الفصيح فسلمت عليه تسليم المعجب بإخلاص.

- أحب أن أتشرف بمعرفة اسمكم الكريم.

- أنا الفقير إلى الله زكي مبارك.

- أهلًا وسهلًا! يا سيد قدُّور، تعال سلم على السيد مبارك.

فالتفت فإذا السيد قدور بن غبريط يصافحني، فتأملت في وجهه طويلًا، وكنت سمعت أنه سعى في إنشاء هذا المسجد ليخدم فرنسا! ولكني تيقنت الآن أنه خدم دينه وبلاده حين استطاع أن يبني مكانًا للصلاة في باريس وفي جوار حديقة النباتات، وصدق الإمام الغزالي حين قال:

«طلبنا العلم لغير الله؛ فأبى أن يكون إلا لله»[1].

باريس ٣ سبتمبر سنة ١٩٢٩

***

(١) من كتاب «ذكريات باريس».

الأدب شريعة ربانية

ينزه الدكتور زكي مبارك الأدب عن الصغائر فيقول على صفحات مجلة الرسالة في أول يونيه سنة ١٩٤٢ تحت عنوان:

بين الكفر والإيمان

«قِيل وقيل: إن الأدب سيجوز فيه ما يجوز في جميع الصناعات، فيحترفه من يشاء حين يشاء، ولو كان صغير الرأس أو نحيل الوجدان.

وأقول: إنَّ الأدب شريعة ربانية لا يصلح ليها غير المصطفين من أرباب القلوب، فمن العسير أن يضاف إلى أهل الأدب من لا يخطُّ حرفًا إلا وهو مسوقٌ بإرادة خارجية، على نحو ما يصنع الفارس الذي رسمته يد البهلوان في أحد الأشرطة السينمائية.

الأدب إيمانٌ وثيق لا يعرف الأشخاص ولا الأزمان ولا الظروف، فليس بأديب من يفرح لأن صدرًا يحتضنه بلؤم أو بشوق، ليجعل من أنامله أداة يلتقط بها الأشواك، وليس بأديب من تخدعه الخوادع الوقتية، فيتوهم أن الخلود نعمةٌ يجود بها أهل الفناء.

الأدب فوق ما يتوهم الأصاغر من طلاب المنح الذواهب، الأدب قوةٌ ذاتية يتوحد بها صاحبها توحد الليث، فليس منا من يرى الحياة أو الجاه في التشرف بخدمة هذا المخلوق أو ذاك، وليس منا من يعق إخوانه ليظفر بالزاد المأدوم بالزور والبهتان... الأدب الحق منحة ربانية يجود بها الله على أرباب القلوب».

ويدافع عن اللغة العربية لأنها لغة القرآن.

سئل مرة: ما هو قولك يوم الحساب؟

فأجاب على صفحات جريدة البلاغ في الثالث عشر من يناير سنة ١٩٥٠ «سأقدم إلى الله مقالاتي وبها خدمت لغة القرآن».

***

obeikandl.com

عيد اللغة العربية[١]

اخترت هذا الموضوع لأنبه على حقائق أدبية ولغوية واجتماعية أرى في التنبيه عليها فائدة تنفع الأمة العربية أجزل النفع؛ لأنها تزيد في ثقتها بوجودها الأدبي، ولأنها تنير الطريق أمام المهتمين بالوحدة العربية، وهي فكرة يمكن تحقيقها بسهولة، إن تعاونا على رفع ما يعترضها من العقبات والأشواك.

ولأجل أن يتضح موضوع هذا الحديث أرجو أن تتذكروا ما كنا عليه قبل أعوام قصار لا طوال، فقد كان في كل قطر عربي جماعة يدعون إلى إيثار اللهجة العامية المحلية في الخطابة والكتابة والتأليف، ومع أن هذه الدعوة واهية الأساس فقد كانت تجد سبلًا إلى بعض الأسماع والأذهان، وكان العقلاء يخشون أن تنخدع بها الجماهير هنا وهناك.

والدعوة إلى اللهجة المحلية دعوة سهلة القبول؛ لأنها تبشر سامعيها بالإعفاء من تكاليف الفصاحة العربية، وهي تكاليف لا يقوى على حملها غير الأقوياء من أهل البيان.

كانت هذه الدعوة تجد من يسمع وتجد من يجيب، ثم خفت صوتها بعد أن جلجل وصلصل عددًا من السنين، فما الذي أسكت ذلك الصوت؟

يرجع السبب إلى النهضة الأدبية الحديثة التي ظهرت طلائعها في الديار المصرية والسورية واللبنانية والعراقية، ولم يكن لهذه النهضة غنى

---

(١) مجلة الرسالة بتاريخ ٢٠/١٢/٤٣، العدد ٥٤٦.

عن لغة قوية تستطيع التعبير عن الدقائق والجلائل من المعاني والأغراض.

عند ذلك انهزمت اللغة العامية؛ لأنها لغة العوام، والعوام لا يحتاجون إلى لغة غنية، لأن مطالبهم في التعبير لا تزيد عما تحتاج إليه الحياة اليومية في المنازل والأسواق.

ومما يثير الضحك أن الذين دعوا إلى اللغة العامية لم يشرحوا قضيتهم إلا باللغة الفصيحة، وهذا شاهد ناطق بأن العامية أضيق وأعجز وأفقر من أن تعين أنصارها على التعبير عن أغراضهم بإسهاب وإطناب.

اقترحت مرة أن يصدر قرار وزاري يجعل اللغة العامية لغة المصريين؛ لنرجع جميعًا إلى اللغة الفصيحة بعد أسبوع أو أسابيع ولكن كيف؟

كنت أنتظر أن يفكر كل كاتب وكل شاعر وكل خطيب في تجميل لغته العامية؛ ليتفوق على النظراء، وليمتاز بالأناقة في البيان، ولا يتم له ذلك إلا إذا استعان بذخائر اللغة الفصيحة، وقد تحمله الرغبة في التفوق على أن يعود طائعًا مختارًا إلى اللغة التي مجدتها الشعوب العربية في عشرات الأجيال، بذلك ينهزم دعاة العامية إلى آخر الزمان.

وما الذي منع دعاة العامية من أن يجعلوها لغتهم في الشعر والكتابة والخطابة والتأليف؟

هل صدر قرار يحرم عليهم أن يكونوا عاميين؟

هل حاربتهم الحكومة؟ هل حاربتهم الأمة؟

لا هـذا ولا ذاك، وإنمـا أوحـت إلـيهم عقـولهم وأذواقهـم أن يـسموا بأنفسهم عن الابتذال، واللغة العامية كالثوب الذي نلبسه في البيت، ونحن نعرف أننا لا نتأنق في الملبس بين جدران البيوت.

إن اللغة سلاح من الأسلحة، وهي في يد الخطيب كالسيف في يد المحارب. ولا حجة للعاقل أن يدخل الميدان وفي يده سيف مفلول.

نحن لم نهزم دعاة اللغة العامية بالقوة، وإنما انهزموا بأنفسهم؛ لأنهم خاضوا غمار المعركة بغير قلب، ولا عزم لمحارب لا يؤازره القلب.

وهـل انهـزم دعـاة اللغـة العاميـة حـين حرصـوا علـى التـسلح باللغـة الفصيحة؟

إن مكرهم أغرب من مكر الشياطين، فقد رأوا أن يسابقوا الإفصاح، وأن يحاولوا نزع راية الفصاحة من أيدينا ليتفردوا بغنيمة المجد الأدبي، فلنكن أول جيش يسلم وهو فرح جذلان.

لقد أراد خصومنا أن يرفعوا أنفسهم فيكونوا خلفاء لأكابر المفصحين، لا خلفاء لعوام المتحدثين في الشوارع والقهوات والبيوت.

أقول هذا وأنا أعترف بلغة الشارع والقهوة والبيت؛ لأنها أماكن يجوز فيها التحلل من التأنق، والتأنق حلية بيانية لا نفكر فيها إلا حين تقف موقف المحاربين بلسان البيان.

اللغة العامية هي ثوب البيت عند رفع التكليف، ومن هنا جاز أن تكون لكل أمة لغتان: لغة عامية ولغة فصيحة، وهذه قضية لا تحتاج إلى براهين ولا محامين.

وأين خصومنا في هذه القضية؟ أين؟ أين؟

للنوابغ منهم قوانين أدبية واجتماعية، فهم يحاولون أن يصلوا إلى أسماع العرب في المشرق والمغرب، وهذا لا يتيسر بغير الأسلوب الفصيح؛ لأن الأسلوب العامي يعجز عن تخطي الحدود.

لم يبق إلا الجهلة من دعاة اللغة العامية، وهم أطفال يهمهم أن يتحذلقوا بمضغ الحديث عن فكرة نبتت على شواطئ الجهل، كما تنبت البقلة الحمقاء على مدارج الغدران.

نحن في هذه القضية بين صورتين اثنتين: صورة العواطف وصورة المنافع، فما موقف خصومنا من هاتين الصورتين؟

إن فرضنا أنهم لا يبالون ما صنع آباؤهم وأجدادهم في إعزاز اللغة الفصيحة إعزازًا حماها من الاندحار في عصور كانت كلها ظلمات في ظلمات، فكيف نفرض أنهم لا يبالون منافعهم وهي من الصميم في وجودهم الحيوي؟

أيستطيعون الاستغناء عن الشرق؟

هذا ممكن، إن أرادوا العيش في ظل الخمول، ولكنه مستحيل إن أرادوا الاتصال بالشرق، في الحدود التي توجبها أواصر الأدب ومنافع الاقتصاد.

لو انتصرت دعوة خصومنا -ولن تنتصر- لكان من الحتم أن يجتاج المصري إلى مترجم حين يزور فلسطين أو الشام أو لبنان، وقد يحتاج إلى

مترجمين حين يزور العراق، وإن الدعوة إلى العامية قد تحيي في العراق عددًا من اللغات.

وأذهب إلى أبعد من ذلك فأقرر أن العصبية المحلية قد تحرج القاهريين إلى مترجمين حين يزورون بلاد الصعيد، بغض النظر عن بلاد النوبة والسودان ودارفور وكردفان!

يجب حتمًا أن نترك هذا السخف الممقوت؛ سخف الدعوة إلى اللغة العامية؛ لأنه من شواهد الانحطاط، ونحن في طريق الاستعلاء.

ويجب أيضًا أن نقتدي بما تصنع الأمم القوية، وهي تفكر في توحيد اللغة قبل أن تفكر في توحيد الأقاليم؛ لأن وحدة اللغة هي حجر الأساس في بناء القومية.

يجب أن تكون للعرب والمسلمين لغة واحدة في المشارق والمغارب، لغة يتلاقون عندها كما يتلاقون في جبل عرفات، وكما يتلاقون في توحيد الله عند الصلوات.

فإن لم يفعلوا -وسيفعلون- فستضيع جهودهم في الدعوة إلى الوحدة العربية والوحدة الإسلامية، ولن يضيعوا أبدًا؛ لأنهم أعقل من أن يتعرضوا إلى مخاطر الضياع.

***

لقد استقر الرأي في البيئات الفنية المصرية على أن من حق لغة المسرح والسينما أن تتحرر من القيود التي تثقل اللغة الفصيحة ما دام موضوع القصة المسرحية أو السينمائية موضوعًا خاصًّا بالمجتمع المصري الحديث، وتلطف الفنانون المصريون مع اللغة الفصيحة فجعلوها لغة الروايات المنتزعة من حوادث التاريخ.

فما الذي وقع بعد ذلك؟

رأينا أولئك الفنانين يقبلون على اللغة الفصيحة في المواقف التي تحتاج إلى روعة البيان، وهذا ما يصنع الفنان يوسف وهبي وما يصنع زملاؤه من المؤلفين المسرحيين والسينمائيين.

وأنتم في غنى عمن يدلكم على تلك المواقف، فما خلت رواية مسرحية أو سينمائية من مشاهد لا يستطيع الممثل أن يؤدي فيها واجبه الفني بغير الأسلوب الفصيح.

كانت (الفرقة المصرية) تلتزم اللغة الفصيحة، وقد نجحت كل النجاح، ولكن ناسًا قالوا: إنها عجزت عن غزو الوساط الشعبية، واقترحوا أن تتحرر من قيود الإفصاح.

وقد غير نظام تلك الفرقة إجابة لصراخ الصارخين من عوام الناس، وألقى الأستاذ محمد «بك» صلاح الدين خطبة قرر فيها أن المسرح ليس مدرسة لتعليم اللغة الفصيحة، وأنه لا بأس من أن يجري الحوار باللغة التي يتكلم بها الناس فيما يتصل بموضوع المسرحية.

ولكن الأقدار قضت بغير ما قضى به هذا الرجل الأريب، فقد بدأت الفرقة موسمها في هذه السنة بمسرحية شعرية، هي قصة قيس ولبنى، وأقبلت الجماهير على شهود هذه القصة أكثر من عشرين ليلة؛ مع أن المفهوم أن الشعر الفصيح أصعب من النثر الفصيح.

فما تفسير هذه الظاهرة الأدبية؟

تفسيرها سهل، فالجمهور المصري يؤمن بأن اللغة الفصيحة هي لغته الأصيلة في المواقف الجدية، بدليل أنه لا يتصور صحة صلاة الجمعة إذا ألقى الخطيب خطبة الجمعة باللغة العامية.

ومن أغرب ما يقع في هذا العصر أن يجهل بعض رجال الآداب والفنون روح الشعب المصري، فهم يتوهمون أنه شعب يستريح إلى المطالب الهينة، ويثقل عليه الجد الصريح.

وبسبب هذا الفهم المنحرف ضاعت جهود ذلك من الأدباء والفنانين.

أتحداكم أن تقيموا مباراة (في حديقة الأزبكية) بين شخصين أحدهما خطيب فصيح، وثانيهما مهرج ظريف.

إن أجبتم دعوتي فسترون أن الجمهور يقبل على الفصاحة وينصرف عن التهريج.

كان في عصر شوقي وحافظ ألف زجال وزجال، فإلى من استمع الشعب المصري؟ استمع إلى الزجالين وتصام عن شوقي وحافظ!

اتقوا الله في وطنكم يا دعاة العامية بهذه البلاد، فإن لم تتقوا الله في وطنكم فاتقوه في أنفسكم، قبل أن تحل عليكم عواقب الإهمال.

وما أقوله عن المصريين أقوله عن إخوانهم في سائر الأقطار العربية، وهي أقطار تنتظر من يسمو بها إلى أرفع منازل البيان.

لقد جدت بنا الأيام، والأيام لا تعرف الهزل، فلينصرف الهازلون عن إفكهم المرذول، إن كانوا يعقلون.

اللغة الفصيحة هي لغة العرب في هذا العهد وفيما يليه من العهود، فليعرف من لم يكن يعرف أن اللغة العامية لغة العوام لا لغة الخواص، وأن العرب قد برئت عيونهم من غشاوة الإسفاف والابتذال.

***

أنا أدعوكم إلى الاحتفال بعيد اللغة العربية، فقد انتصرت على أبنائهم، لا على أعدائها؟ فما كان للغة العربية أعداء غير أولئك الأبناء.

في إنجلترة وألمانيا وفرنسا وإيطاليا إذاعاتٌ عربية لا تعرف غير اللغة الفصيحة؛ لأنها تريد أن تخاطب العرب بلغتهم الدولية لا المحلية، واللغة الفصيحة هي لغة العرب الدولية، كما يفهم الأوربيون والأمريكيون، وهم أهل الخبرة بطبائع النفوس في هذا الجيل.

اسمعوا صوت الزمن، إن لم تسمعوا صوت الحق، واحتفلوا معي بعيد اللغة العربية في عيد القمر، وهو عيد التضحية، وعيد الوفاء.

***

في كلية الآداب

كتب إليَّ طالبٌ لا أسميه «إشفاقًا عليه من بعض المصاعب» كلمة يقول فيها: إن المحصول الأدبي في مجلة الرسالة قد استهواه فنقله من قسم اللغة الإنجليزية إلى قسم اللغة العربية، فماذا أقول في توجيه ذلك الطالب الأديب؟

أقول: إن قسم اللغة الإنجليزية مطالبه أسهل من مطالب قسم اللغة العربية؛ وإليه البيان:

المتخرجون في قسم اللغة الإنجليزية لا يطالبون بالتفوق الذي يسمح بأن يكونوا من شراح الأدب الإنجليزي في مناحيه العقلية والاجتماعية، ولا يراد منهم إلا أن يكونوا أساتذة صالحين لتدريس اللغة الإنجليزية في المدارس الابتدائية والثانوية.

أما المتخرجون في قسم اللغة العربية فهم مطالبون بالتفوق المطلق، التفوق الذي يسمح بأن يكونوا من أئمة الأدب العربي في هذا الجيل.

يضاف إلى ذلك أن كلية الآداب شحيحة بالرجال، فمنذ إنشائها في سنة ١٩٠٨ إلى اليوم لم يبرز من أبنائها غير آحاد؛ لأن المثل الأعلى في تصور كلية الآداب لا يسمح بنبوغ العشرات والمئات. ومن حسن الحظ أنها كانت كذلك، ليظل النبوغ الأدبي بعيدًا من أوضار النسبة العددية، ولتظل كلية الآداب كلية آداب.

والحياة الجامعية في مصر تؤرخ بنشأة هذه الكلية فهي النواة الصحيحة للجامعة المصرية وهي الفيصل بين عهدين:

عهد المحاكاة وعهد الإبداع.

وكان قسم اللغة العربية أساس كلية الآداب، كما كانت كلية الآداب أساس الجامعة المصرية وهي عصارة الأماني الوطنية؛ فقد أنشئت لأسباب ما أظنها تخفى عليك إلا أن يجب العلم بالتاريخ القديم مع جواز الجهل بالتاريخ الحديث.

وكليتنا الغالية موسومة بقوة الروح فما ذكرت الحياة الجامعية إلا كانت أول ما يخطر في البال، ولا جاز الاضطهاد إلا على أبنائها الأوفياء؛ لأنهم سبقوا زمنهم بأزمان.

فإن وجدت من قوة العزيمة ما يساعد على أن تكون من أساطين قسم اللغة العربية فاقبل غير هياب، حرسك الله ورعاك.

مجلة الرسالة ١٤ سبتمبر ١٩٤٢

***

شبهة لغوية[١]

هي شبهة من يتوهمون أن اللفظة الفصيحة هي اللفظة المخدرة، ويريدون بها اللفظة التي لا يعرفها سواد الناس، فالكاتب العظيم في نظر هؤلاء هو الكاتب الذي يتحامى المأنوس من الألفاظ، ويؤثر الألفاظ التي عاشت في المعاجم بقوة التحنيط وإن حُرمت الحياة منذ أزمان.

وأنا لا أقيم وزنًا لهذا الرأي، وأضيف أصحابه إلى الجهلاء، ولا يؤذيني أن يتهموني بالتسامح في اللغة، كما طاب لأحدهم أن يقول ذلك في إحدى المجلات.

الألفاظ تتقاتل في سبيل العيش كما يتقاتل الناس، فينتصر فريق وينهزم فريق، ثم يجيء الكاتب الحصيف فيعانق اللفظ المنتصر، ويتقدم الكاتب المخذول فيعانق اللفظ المخذول.

كان أحد أعضاء المجمع اللغوي -وهو السيد حسن القاياتي- أنكر عليَّ في مقال نشره في جريدة البلاغ منذ سنين أن أستعمل لفظة «يستأهل» بمعنى «يستحق» فكتبت في الرد عليه مقالًا بعنوان: «والله تستأهل يا قلبي».

واستعملت مرة كلمة «شاف» بمعنى «رأى» فثار خلقٌ من خلق الله وعدُّوني من المتسامحين في اللغة، فسألتهم عن «تشوَّف» وهي كلمة

(١) الرسالة العدد ٥٢ بتاريخ ١٩٤٣/٦/٢١.

كثيرة الورود في قصائد التشبيب، ثم أكدت لهم أن العرب في جميع الأقطار يقولون: «شافه» بمعنى «رآه» وقد «شفتهم» بعيني!

أتريدون الحق؟

الحق أن النقد اللغوي غلبت عليه الصبغة الببغاوية، وإليكم هذا المثال:

قضى علماء البلاغة نحو عشرة قرون وهم يقولون في مؤلفاتهم وفي دروسهم بأن المتنبي أخطأ في جمع بوق على بوقات حين قال:

فإن يكُ بعضُ الناس سيفًا لدولةٍ ففي الناس بوقاتٌ لها وطبول

وكان العجب كل العجب أن يتحامل علماء البلاغة على المتنبي نحو عشرة قرون، ولا يجدون من يهديهم إلى الصواب.

وأثني على نفسي «للمرة الأولى بعد الديشيليون» فأقرر أني تفردت برفع الظلم الذي عاناه المتنبي في تلك القرون، ولكن كيف؟

ليست البوقات جمع بوق، كما توهموا، وإنما هي جمع بوقة، والبوقة هي اللفظة الاصطلاحية في موسيقا الجيش العربي، كما تشهد نصوص رأيتها في بعض كتب التاريخ.

وهنا أسوق فائدة لا أذكر أني رأيت من نبه عليها في كتب الصرف، وهي جعل التأنيث من صور التصغير، فالبوقة أصغر من البوق، والطبلة أصغر من الطبل، والبحرة أصغر من البحر، وقد بولغ في تصغيرها فصارت بحيرة.

و«طُونس» الساقية في عُرف أهل الريف له وصلة يسمّونها «الفرخ» إن كانت طويلة، ويسمونها «الفرخة» إن كانت قصيرة وفي شوارع القاهرة نجد بائعًا يتغنى:

«حبِّ العزيز الرُّبعة بقرش»

فما الرُّبعة؟ هي مصغَّر الرُّبع، بلا جدال.

إن الصفة الببغاوية في النقد اللغوي أضرت باللغة وآذتها أعنف الإيذاء، فقد كتب كاتب في الرسالة ينقد استعمال كلمة «مَرِير» بمعنى مُر، وحجته أن المرير هو الحبل المحكم الفتل، ثم اتفق أن رأيت الشريف الرضي يستعمل كلمة «المرير» ويريد بها المر، فنظرت في أساس البلاغة فوجدت الزمخشري نصَّ عليها بوضوح لا يحتمل الخلاف.

وأنكر قومٌ جمع «صناعة» على صنائع، وألحوا إلى أن حملوا وزارة المعارف على تغيير اسم مدرسة الصنائع، مع أن لهذا الجمع شواهد تفوق العدَّ، وعلى أقلام كبار البلغاء.

وأنكروا أن تنسب إلى «الطبيعة» فتقول: طبيعي، مع أن العرب لم يقولوا طبعي، ومع أن «فعلي» في «فعيلة» هو في ذاته شذوذ.

والجرائد تقول: «القتيل» وهي تريد القتيلة؛ لأن قائلًا قال بأن «فعيل» يستوي فيه التذكير والتأنيث، وهذا خطأ، إذا كان فعيل بمعنى مفعول، وهل أخطأ صاحب لسان العرب حين قال: رجل دفين وامرأة دفينة؟

ولم يفهم النحويون علة التذكير في آية: {إن رحمة الله قريب من المحسنين} فعدوه تذكيرًا أوجبته المجاورة ونسوا أن «قريب» في معنى الفاعل لا معنى المفعول.

والمراد من الصفة الببغاوية في النقد اللغوي هو أن يحكي بعض الناس ما يقرءون حكاية الببغاوات. فأكثر ما نرى من اعتراض هو ألفاظ منقولة عن ناس تعرضوا للنقد اللغوي بلا بصيرة ولا يقين.

لغة العرب لغة آبائنا وأجدادنا، فليعرف من لم يكن يعرف أن خطأنا فيها أفصح من الصواب، وإننا لن نسمح لأني اعتراض بعد أن ركزنا الراية فوق ناصية الخلود.

obeikandl.com

من وحي الطبع

ومن مجلة الرسالة وفي أول يونية سنة ١٩٤٢ يرى زكي مبارك أن القليل من وحي الطبع أنفع من الكثير المصنوع فيقول تحت عنوان:

نهاية فلان

هو كاتبٌ فصيح يعرفه قراء اللغة العربية من أعوام طوال، ثم تحول فجأة إلى كاتب عامي اللغة والمذهب، فما سببُ هذا التحول المزعج؟

كان في بداية حياته الأدبية يرتاب في قدرته على الإنشاء الفصيح، فكان يبحث عمن يقومون عباراته، ويرفعون عنها آصار العُجمة والتهافت، وبهذه الخطة كانت ثقته بنفسه تضعف من يوم إلى يوم، ثم رأى أن يتحرر من سيطرة المراجعين والمصححين، فأعلن أن اللغة العامية أحسن اللغات وأنه سيجعلها لغته المختارة إلى أن يقضي الله في أمره ما هو قاض.

كان فلان ولن يزال من أهل الرأي وأصحاب الخيال، وكذَب من ادعوا أنهم قوَّلوه ما لم يقُل وأنهم مصدر الوحي لأدبه الجميل.

فهل نرجو أن ينظر فلان في هذه الكلمة الخالصة لوجه الأدب والحق، فيكتب اللغة الفصيحة على سجيته وفي حدود ما يطيق ليصبح بعد قليل وهو من أساطين البيان؟

فلان شخصية كريمة الجوهر، وضياعها على الأدب الفصيح ضربٌ من الخُسران، فهل يرفق بنفسه فيروضها رياضة جديدة على أساليب الفصحاء بلا تكلف ولا افتعال؟

القليل من وحي الطبع أجدى وأنفع من الكثير المصنوع، فارجع إلى طبعك يا فلان، وانتفع بما فيه من ثروة أصيلة، قبل أن يصعب انتشالك من هُوة مذهبك الجديد، صانك الله وحَماك!

***

obeikandl.com

من أقوال زكي مبارك
في هذا الصدد

يرى زكي مبارك أن النهضة الأدبية الحديثة في حاجة إلى لغة قوية تستطيع التعبير عن الدقائق والجلائل من الأماني والأغراض، ولهذا يجب على من يكتبون باللغة العربية الحفاظ على اللغة العربية الفصحى؛ فاللغة سلاح من الأسلحة وهي في يد الخطيب كالسيف في يد المحارب، ولا يجوز للعاقل أن يدخل الميدان وفي يده سلاح مفلول. ويقول: «في إنجلترا وألمانيا وفرنسا وإيطاليا إذاعات عربية لا تعرف غير اللغة الفصحى؛ لأنها ترى أن تخاطب العرب بلغتهم الدولية لا المحلية، واللغة العربية هي لغة العرب الدولية كما يفهم الأوربيون والأمريكيون وهم أهل حبرة بطبائع النفوس في هذا الجيل»[1].

ومما كتبه عن أهمية اللغة العربية والحرص عليها رده على الكاتب سلامة موسى على صفحات جريدة البلاغ في الرابع من يناير سنة ١٩٣٥ حيث كتب يقول تحت عنوان: «اقرءوا ثم احكموا بيني وبين الأستاذ سلامة موسى»:

«اسمع يا أستاذ سلامة! ما رأيك فيمن ينقض مقالك ويأتي عليه من الأساس، ولنبدأ بالعنوان وهو (اللغة لخدمتنا ولسنا نحن لخدمتها) عنوان

(١) انظر ما سبق ص٢٦٤.

جميل حقًّا، ويرجع جماله إلى أنه يذكرني بصديق عزيز كانت لي معه نوادر وأحاديث.

كان ذلك الصديق يسير في الطريق يستطلع أحوال الناس، فاتفق له مرة أن رأى رجلًا مشغولًا بترميم نبته، فصاح في وجهه: أيها الرجل، إن البيت خلق لخدمتك ولم تخلق لخدمته.

وحدث مرة أخرى أن رأى شابًّا مشغولًا يرفو ثوبه، فالتفت إليه وقال: يا عبيط، أنت لم تخلق لخدمة الثوب ولكن الثوب خلق لخدمتك.

كان ذلك الصديق يحسب أن الصناعات والفنون والآداب سخرت تسخيرًا لخدمة الإنسان.

وكان يعتقد أن مهمة الإنسان أن يلهو ويتمتع، وكنت أظن أنه على حق، فلما قال الأستاذ سلامة موسى: «اللغة لخدمتنا ولسنا لخدمتها» عرفت أني كنت مخطئًا وأني لم أظفر من العلم إلا بالنزر القليل.

معنى كلام الأستاذ سلامة موسى أن اللغة دابة تمشي على أربع، وأنها تأكل وتشرب وتعقل، وأنها كالبقرة الحلوب تملأ الذهن.

لا يا سيدي، يفتح الله علينا وعليك... نحن صاغة اللغة، وهي تضعف وتقوى وفقًا لما فينا من ضعف وقوة، فللأمم القوية لغات قوية، وللأمم الضعيفة لغات ضعيفة، فالناس هم الذين يخلقون اللغات، وبمقدار حرصهم على تهذيبها وإصلاحها وإحيائها يكون نصيبهم من المدنية.

فإن رأيت إنسانًا يعنى بلغته فلا تحسب أنه يلهو ويلعب، ولكن تذكر أنه يؤدي مهمة عقلية لا يزهد فيها إلا من يجهلون قيمة اللغات من الدلالة

على حضارة الشعوب، ولو كان رأيك صحيحًا لكانت إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا أممًا متأخرة؛ لأنها تشغل نفسها بما لا يفيد حين تنشئ مختلف المعاهد للدراسات الأدبية واللغوية؟!!».

زكي مبارك يحرص إذن على اللغة الفصحى كما رأينا، وهو مع ذلك لا ينسى الفائدة من دراسة أخيلة العوام، فلقد كتب على صفحات جريدة البلاغ في الثالث عشر من مارس سنة ١٩٣٦ يقول:

«نحن نؤمن بأن كل شيء يصلح للبحث إذا تنبه إليه الفكر ونظر إليه الباحث نظرة علمية، فالأخيلة العلمية تستحق الدرس لأنها من الأدب الفطري الذي كان ولا يزال نواة للأدب الرفيع الذي يصدر عن كبار الرجال. وفي أدب العوام ألفاظ وتعابير تنفع الباحثين من علماء النفس، ولا يعيبها أن تصدر عن العوام؛ لأن هؤلاء يمثلون الفطرة التي لم يفسدها التكلف والافتعال.

والأدب بالرغم من ميله إلى الارستقراطية العقلية لا ينبغي له أن يتجاهل أخيلة العوام وأن يعدها كلها من سقط المتاع؛ فالعوام هم ذخيرة الأمم في الحروب وهم عدتها في الصناعات، وإليهم المرجع في وزن حيوية الشعوب، ولا يمكن لفكرة دينية أو اجتماعية أن تنمو وتترعرع إلا إن اعتنقها العوام وبذلوا في سبيلها الأموال والأنفس.

فدراسة أدب العوام ليست من اللغو والفضول، وإنما هي مفتاح لمعرفة ما تنطوي عليه أفئدتهم من أصول «المعاني والأغراض».

ويرى أن الأدب العربي سيكون له الفضل في صلة الوصل بين الشرق والغرب، ويتساءل:

«هل كتب على لغتنا في العصر الحاضر ألا يكون فيها أدباء يقدرون على الاتصال بمصادر الثقافة في الشرق والغرب، كما كان ذلك من حظها في الأعصر الماضية؟

إنَّ الأديب هو أحوج الرجال إلى اعتلاج العواطف والأفكار والأحاسيس، ولا يتم له ذلك إلا إذا استطاع معاشرة الناس من جميع الأجناس.

إنَّ المزية الصحيحة للأدباء الذين سبقونا بالتفوق هي اتصالهم بالآداب الأجنبية، وقدرتهم على التجول في أقطار المشرق والمغرب، وشبابنا الأغنياء سيؤدون هذا الواجب حين يصبحون من أدباء اللغة العربية».

***

obeikandl.com